

الحسن والخليفة الثالث

الحسن في عهد عثمان شاب عمره بنيف على عشرين عاماً ، وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة ، وبمعنى آخر شاب يقظ مجلله نورانية الإيمان بما هذب منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصقل منه الإمام على رضى الله عنه وأرهفت منه فاطمة ، وبأن قد صار إنساناً باراً يتدفع في سبيل الله ، فدخل الحسن في دوره هذا ميدان الجهاد ، فانضم إلى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم الفاتحة إلى احتلال أفريقيا ، فانخرط في الجيش ويسير إلى المغرب فيدخل مع الفاتحين له ما لهم وعليه ما عليهم . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اتجه الحسن إلى عاصمة جده صلى الله عليه وسلم والنصر حليفه وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الإسلامى وانتشار دين جده العظيم .

على أن ما يعينى أن أبرزه هو الخلاف على موقف الحسن رضى الله عنه في المحنة التي اجتازها الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه والتي انتهت بقتله ، يقول عميد الأدب العربى المغفور له الدكتور طه حسين : (وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة على كره منه فى أكبر الظن ، قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك المعارضة حين عظم الشر ،

وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته ، ولكن الخليفة قتل على الرغم من ذلك لأن خصمه تسوروا عليه الدار ولم يكن الحسن يرى أن يشترك أبوه في شيء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد ، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم في ماله بينبع ، فلم يسمع على له وإنما رأى أن مكانه في المدينة حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس ، فلما قتل عثمان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم في المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عرضت عليه - ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالها كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي ولكنه عرف لأبيه حقه عليه فأقام معه وشهد مشاهدته كلها على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه ، ثم لم يكن الحسن يرى لأبيه أن يترك مهاجره في المدينة وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة ، وإنما كان يؤثر له أن يبقى في مهاجره مجاوراً النبي وبكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت بمضيعة ، وكان أبوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه توم العراق فقال له أبوه (إنك لتحن حنين الجارية) .

ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان فكان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا أنه لم يسأل سيفاً للثأر بعثمان لأنه لم ير ذلك حقاً له ، وربما غالى في عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم مالا يحب . فقد روى الرواة أن علياً مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : (أسبغ الوضوء) فأجابه الحسن بهذه

الكلمة المُرّة : (لقد قتلتم بالأمس رجلاً كان يُسبغ الوضوء) ، فلم يزد على أن قال : (لقد أطال الله خزنك على عثمان) .

أما الشيعة فيخالفون الدكتور طه حسين الرأى فيما قال (إن الحسن كان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة) ، ويرون أن الحسن كان من جملة الناقدين والناقمين على عثمان ، فقد رأى ما لاقاه حزب أيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال ويضربون بما لاقاه وما تعرض له أمثال عمار ابن ياسر وأبى ذر - فقد ضرب عمار بن ياسر وعشى عليه ، ومن رأى الشيعة أن الخليفة الثالث لم يرع حق عمار وهو فى طليعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى إيمانه بالله ووجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب الرقم القياسى للعقيدة والإيمان . ويقولون إن الصحابى أبا ذر اندفع إلى نكران سياسة عثمان فأمر الخليفة الناس أن لا يجالسوا أبا ذر ولا يكلموه ، وقال له أبو ذر : (ويحك يا عثمان أما زأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت أبا بكر وعمر - هل رأيت هذا هديهم ؟ إنك لتبطش بى بطش الجبارين) فقال له عثمان : (اخرج عنا من بلادنا) ، فقال له أبو ذر : ما أبغض جوارك إلى قبلى أين أخرج ؟ - قال حيث شئت ، قال فأخرج إلى الشام أرض الجهاد قال له : إنما جلبتك من الشام لأنك أفسدتها فكيف أردك إليها قال فأخرج إلى العراق ، قال لا ، وأخيراً أمره بالخروج إلى الربذة (بالقرب من المدينة) . وكان فى توديع أبى ذر الإمام على وعقيل وعبد الله ابن جعفر والحسن والحسين ، وألقى الحسن رضى الله عنه كلمة توديع قال

فيها : (باعماه لولا أنه لا ينبغي للمودع أن يسكت وللمشييع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف ، وقد أتى من القوم إليك ما ترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راض) . ورد عليه أبو ذر قائلاً : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة - إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصريين^(١) فأفسد الناس عليهما فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

ويسوق الشيعة الكثير ليدلوا على ما لاقاه بعض الصحابة من العنت من جانب الخليفة الثالث وأن هذا لا يتفق مع قول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين إن الإمام الحسن كان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ويقولون إن الإمام الحسن كان من جملة الناقدين للخليفة لأنه رأى ما لاقاه حزب أبيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال وشاهد ما لاقاه أبوه الإمام عليّ من الاستهانة بحقه .

ومرة أخرى لا يوافق الشيعة على ما رواه المسعودي من أنه لما اندلعت نيران الثورة عزم الثائرون على قتل الخليفة بعد ما حاصروه أمداً غير يسير .

(١) المصريين البصرة ومصر وكان والى البصرة عبد الله بن عامر ووالى مصر عبد الله بن سعد بن

والذى رواه المسعودى كما جاء فى مروج الذهب أن الإمام علياً بعث الحسن والحسين للدفاع عن عثمان لما بلغه أن القوم قد عزموا على قتله . ويؤيد الدكتور طه حسين رواية المسعودى فيقول : (وقد اجتمع القادرون على القتال من بنى أمية وانضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثائرين وكان فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا علي ومحمد بن طلحة . . .) .

ويدلل الشيعة على أن رواية المسعودى غير صحيحة إلى استبعاد انفصال الحسن وأبيه الإمام عن البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار ، فإن التاريخ فى رأيهم لم يحدث أنهم ثاروا لعثمان أو خذلوا الثائرين عنه ، مع العلم أن مدة الحصار على رواية المسعودى تسعة وأربعون يوماً . ولم تظهر من الصحابة طيلة تلك المدة بادرة من بوادر المساعدة والمؤازرة ولو كانوا غير راضين بالأمر لما تمكن الثائرون من فعل أى شيء فإن عددهم لم يك خطيراً حتى لا يتمكنوا من القضاء عليهم . ويرى الشيعة أنهم كانوا يزيدون الثائرين حماساً ويمجدون نهضتهم ولا يختص ذلك بطائفة دون أخرى ، ويصلون فى النهاية إلى أن موقف الحسن للدفاع عن عثمان محل شك وريبة .

على أن الدكتور محمد الصادق فى كتابه (على والحاكمون) يقول تحت عنوان (مقتل عثمان) : فلما جاءت وفود الأمصار تشكو إليه عماله واستبدادهم وركوبهم الأهواء راجين أن ينصفهم بعض الإنصاف الذى كان

بعهد الأولين فوعدهم خيراً في ظاهر الأمر وبطن لهم حيلة القضاء على قادة الوفود ، فلما كانوا في بعض الطريق إلى ديارهم ضبطوا كتاباً من مروان ابن الحكم يأمر به العمال بقتل زعماء الوفود ساعة يصلون ، فارتدوا حينذاك إلى المدينة وطلبوا من عثمان مشيره الأول هذا الكذاب الأشر ، طلبوا إليه أن يسلمهم مروان - فأبى وأصروا - وأصر ألا يجيب لهم طلباً ، واشتد سخطهم وزادت بهم النقمة حتى اضطر الخليفة إلى ملازمة داره أربعين يوماً ، وعلى بن أبي طالب يسمى طيلة هذه الأيام أن يحسم مادة الخلاف بطريقة صالحة يقرها المنطق الصحيح ، فقال له : (إن الناس ورائي) ذلك النصح البالغ السالف فلم ينفعه إلا اعتاداً وإصراراً .

ثم قوى جانب الوفود الانقلابيين حتى انضم إليهم خلق كثير من العاصمة وغيرها ، وحاصروا قصر الخلافة بكل ضراوة وشراسة ، فلما تعاضم الخطر على من في الدار تخلى عن الخليفة حتى أبناء عائلته الأمويين الذي كانوا هم السبب الرئيسي فيما صار إليه أمره وأمر المسلمين . فأثروا أن يهربوا خفية إلى الشام حيث ينتظرهم نسيبهم معاوية عامل الخليفة عليها ، وبقى الحسنان على رأس القوم الذين يلازمون أبواب دار الخلافة لعلهم يمنعون عن الخليفة الأذى وسوء المصير حتى يخرج من مظالم الناس . .

وقد قيل إنه لما طال حصار الثوار لدار عثمان وساءت معاملتهم له فنسوه من الخروج والصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وحالوا دون وصول الماء إليه . أرسل عثمان إلى بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات

المؤمنين يطلب إليهم أن يمدوه بحاجته من الماء ، فسارع الإمام على إلى تلبية رغبته وأقبل على الثوار ، وقيل إنه قال لهم : (إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله) .

وقيل إنه لما مات الخليفة لم يسمح الثوار في بادئ الأمر بدفنه فظل ثلاثة أيام دون دفن ، وطلب بعض القرشيين من الإمام على أن يتوسط لدى الثوار ليسمحوا بمواراة جثمانه التراب فأذنوا بدفنه ، ولم يشهد جنازته سوى مروان بن الحكم وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة العدوي ونيار بن مكرم وزوجتي عثمان .

وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة فنهزم الإمام على .

وحفظ الإمام الحسن رضي الله عنه وعمره أربع سنين الشيء الكثير مما سمعه من جده وما قاله :

١ - علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولها في الوتر :
« اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ،
وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ،
وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت » .

٢ - وروى عمير بن مأمون قال : سمعت الحسن بن علي يقول : من

صلى صلاة الغداة فجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار أو قال : ستر من النار .

٣ - وسئل رضى الله عنه عما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعته يقول لرجل « دبع ما يربيك إلى مالا يربيك فإن الشريعة والخير طمأنينة » .

٤ - وقال له بعض أصحابه : ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : أخذت تمر من تمر الصدقة ، فتركتها في فمي فترعها بلعابها ، فقيل يا رسول الله ، ما كان عليك من هذه التمرة ، قال إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة .

٥ - وعن خلق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الإمام الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأله أحد حاجة لم يرد إلا بها أو بميسور من القول .

٦ - عندما غضب سيدنا عثمان رضى الله عنه على أبى ذر ، ورأى إبعاده ، فأخرجه من المدينة ، وبادر الإمام الحسن إلى توديعه قائلاً : « يا عماد لولا أنه ينبغى للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام ، وإن طال الأسف وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد فيها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عليك راض » .

وقد رد أبو ذر فقال : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتمكم

ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالى بالمدينة سكن ولا شجن
غيركم إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره
أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس
لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله
وحشة .

زوجاته

عرف الإمام الحسن رضى الله عنه بحسن عشرته لأزواجه فكان يمكنهم
بمعروف ويسرحهن بإحسان وكان الناس يرغبون فى مصاهرته . وروى أبو الفرج
فى الأغانى بسنده عن عوف بن خارجة قال : « والله إني لعند عمر بن الخطاب
رضى الله عنه فى خلافته إذ أقبل رجل يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدى
عمر فحياه بتحية الخلافة .

فقال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا امرؤ نصرانى ، أنا امرؤ القيس
ابن عدى الكلبي . قال : فما تريد ؟ قال : أريد الإسلام . فعرضه عليه
عمر رضى الله عنه . فقبله ثم دعا له برمح ففقد له على من أسلم بالشام من
قضاة فأدير الشيخ واللواء يهتز على رأسه .

قال عوف فوالله ما رأيت رجلاً لم يصل لله ركعة قط أمر على جماعة
المسلمين قبله ونهض على بن أبى طالب رضوان الله عليه من المجلس . ومعد
ابناه الحسن والحسين عليهم السلام حتى أدركه فأخذ بثيابه .

فقال له : « يا عم أنا على بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، وهذان ابناي الحسن والحسين من ابنته ، وقد رغبتنا في صهرك فأنكحنا فقال : قد أنكحتك يا علي الحياة بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس (أم السيدة سكينة) » .

وقال هشام الكلبي : كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن . وسرى في الفصل القادم أنها خطبت بعد قتل الإمام الحسين ، فقالت : « ما كنت لأتخذ حمأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد تزوج خولة بنت منظور الفزارية ، وجعدة بنت الأشعث ، وأم كلثوم بنت الفضل بن العباس ، وأم إسحاق بنت طلحة ، وولدت منه ولداً سماه طلحة ، وأم بشير بنت أبي مسعود الأنصاري ولدت منه زيدا ، وهند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وحفصة ابنة عبد الرحمن ابن أبي بكر ، وغيرهن ومجموع ما تزوجه لم يتجاوز خمسة عشر ، وهو رقم لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولا يمت إلى ما زعمه بعض المستشرقين من أن عدد زوجاته وصل إلى المائة ، ويعيب بعض قصار الإدراك كثرة زواجه وطلاقه مع أتي - كما بينت - أعتبر عدد مرات زواجه عادياً مثل الذي كان يحدث في زمانه ، ولست أدري من أين جاءت هذه الكثرة التي يتحدث عنها رجال التاريخ والمستشرقون كما سرى بعد قليل وينسى هؤلاء جميعاً أن الزواج في زمانهم كان يربط العصبيات ويزيد في قوة

القبائل ، وكان تعدد الزواج أمراً مألوفاً بل مستحباً وهو في بيت النبوة أكثر استحباباً ، وليس مع الحلال تهمة ، وما أحوج المجتمع لأئمة الهدى الذين يمشون بين الناس بنور الإيمان الذي يرقونه من عرقهم الطاهر المطهر ، وينمون في بيئتهم النقية الصالحة .

وصلق الإمام على كرم الله وجهه حينما قال في السادة آل البيت الأطهار : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطي الهدى ويستجلى العمى » .

وصدق الفرزدق حين قال :

إن عهد أهل التقي كانوا أئمتهم

أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

وينتهز (لامنس) هذه الفرصة ليتحدى الإسلام ليلصق به التهم ويعطعن في رجاله ، وقد كتب في بحثه عن أزواج الإمام : « ولما تجاوز (يعني الإمام الحسن رضي الله عنه) الشباب وقد أنفق خير سني شبابه في الزواج والطلاق ، فأحصى له حوالي المائة زوجة وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلق ، وأوقعت علياً في خصومات عنيفة وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف ، وقد خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خادم وحشم ، وهكذا نرى كيف يبعثر المال أيام خلافة علي التي اشتد فيها الفقر . . . »

وقد اعتمد لامنس في قوله : « إن الإمام كان كثير الزواج والطلاق » على

أقوال المدائني وأمثاله من المؤرخين الذين تابعوا السبلطة الحاكمة فكتبوا لها لا للتاريخ .

وقد استقى المستشرقون الذين كادوا للإسلام في بحوثهم من منهل المؤرخين الذين ساندوا تلك الدول الجائرة التي ناهضت أهل البيت وعملت على تشويه واقعهم والخط من كرامتهم ، وقد زاد عليه لامنس فذكر من الأكاذيب ما لم يقل به أحد غيره فقد قال :

١ - إنه ألقى أباه بسبب كثرة زواجه وطلاقه في خصومات عنيفة ولم يشر أحد ممن ترجم الإمام إلى تلك الخصومات العنيفة التي زعمها لامنس .

٢ - وذكر أن الإمام خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم . وأن جميع المؤرخين لم ينقلوا ذلك ، وهو من الكذب السافر والافتراء المحض لقد كان زواج الإمام الحسن ليس الزواج الذي يختص به الرجل لمشاركة حياته ، وإنما كانت حوادث استدعتها ظروف شرعية محضة ، من شأنها أن يكثر فيها الزواج والطلاق معاً ، وذلك هو دليل سمتها الخاصة .

ونعود إلى زوجاته ، فأما « خولة بنت منظور الفزارية » فهي من سيدات النساء في وفور عقلها وكما لها تزوج بها كما سألين فيما بعد ، فقيل إنه ليلة اقترانه بها بات معها على سطح الدار فشدت خمارها برجله وشدت الطرف الآخر بخلخالها فلما استيقظ وجد ذلك فسألها عنه فقالت له معرفة عن إخلاصها وحرصها على حياته : « خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم سخلة على العرب » ، فلما رأى منها ذلك أحبها وأقام عندها

سبعة أيام ، وقد بقيت عنده حولا لم تترين ولم تكتحل حتى رزقت منه السيد (الحسن) فترينت فدخل عليها الإمام فرآها مترينة فقال لها « ما هذا » فقالت له : « خفت أن أتزين وأنصنع فتقول النساء تجملت فلم تر عنده شيئا فأما وقد رزقت ولداً فلا أبالي . »

وبقيت عنده إلى أن توفى فجزعت عليه جزعاً شديداً ، فقال لها أبوها مسلماً :

نبئت خولة أمس قد جزعت من أن تنوب نوابب الدهر

لا تجزعي يا خول واصطبري إن الكرام بنوا على الصبر

وذكرت السيدة زينب بنت عليّ العاملة في ترجمة خولة ما حاصله أنها لما بلغت مبالغ النساء خطبها جملة من وجهاء قريش وأشرافهم ، فامتنع أبوها من إجابتهم لأنهم ليسوا بأكفاء لها ، ثم إنه طلق أمها (مليكة بنت خارجة) فتزوجها من بعده طلحة بن عبيد الله ، وتزوج ابنه محمد بخولة فولدت له إبراهيم وداود وأم القاسم ، وقتل زوجها محمد في واقعة الجمل فخطبها جماعة من الناس فجعلت أمرها بيد الحسن فتزوجها .

ويروى أنه لما نزع الإمام إلى يثرب حملها معه ، فبلغ أباها ذلك فأقبل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وببده راية فركزها في المسجد ، فلم يبق قيسى إلا وانضم تحتها وهو يهتف بقومه ويستنجد بهم على أخذ بنته من الإمام ، فلما بلغه رضى الله عنه ذلك خلى سراحتها فأخذها وخرج ، فجعلت خولة تتوسل به على إرجاعها وتندد بعمله وتذكر له فضل الإمام ، فندم

على فعله وقال لها « البئى ما هنا فإن كان للرجل بك من حاجة سيلحق بك » .
فلحقه الإمام مع أخيه الحسين وعبد الله بن عباس ، فلما اتبها إليه قابلهم
بحفاوة وأرجعها إلى الإمام . وهذه القصة مشكوك في صحتها .

أما « جعدة بنت الأشعث » فقد اختلف المؤرخون في اسمها ، فقيل
سكينة ، وقيل شعناء ، وقيل عائشة ، والأصح أنها جعدة حسب ما ذكره
أكثر المؤرخين وكما جاء في مقاتل الطالبين .

أما « عائشة الخثعمية » وقد تزوجها الإمام الحسن في حياة والده ولما قتل
على أقبلت إلى الإمام الحسن فأظهرت الشماتة بوفاة أبيه .
فقال له : « لتهنك الخلافة » .

ولما علم عليه السلام شماتها قال لها : « أقتل علىّ تظهرين الشماتة ،
اذهي فأنت طالق » فتلفعت بشياها وقعدت حتى انقضت عدتها ، فبعث لها
بقية صداقها وعشرة آلاف درهم صدقة لتستعين بها على أمورها ، فلما وصلت
إليها ، قالت : « متاع قليل من حبيب مفارق » ولم يذكر التاريخ أن
الإمام طلق زوجة سوى هذه وأم كلثوم وامرأة من بنى شيبان ..

أما بقية زوجاته فقيل هم : أم كلثوم بنت الفضل بن عباس ، وفي
الاستيعاب أن الإمام الحسن تزوجها ، ثم فارقتها فتروجها من بعده أبو موسى
الأشعري ، ثم أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي وقد ولدت منه
ولداً أسماه طلحة ، وأم بشير بنت أبي مسعود الأنصاري وولدها زيد ، وهند
بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وامرأة من بنات عمرو بن أھم المنقرى ،

وامرأة من ثقيف وولدها عمر ، وامرأة من بنات زارة ، وامرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة فليل له إنها ترى رأى الخوارج فطلقها وقال : « إني أكره أن أضم إلى نحري جمرة من جمر جهنم »^(١) وأم عبد الله ، وهي بنت الشليل بن عبد الله أخى جرير البجلي ، وأم القاسم .

وبذلك يكون مجموع ما تزوجه الإمام الحسن هذا العدد الذى ذكرناه وهو لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولنا أن نسأل أين كثرة الزواج والطلاق التى طبل لها بعض المؤرخين .

وإذا كان هناك تعدد لزواجه فيجب الحكم على ذلك فى ظل الظروف التى كان يعيش فيها ، فإذا كان قد تزوج أكثر من مرة فإنه يقصد بهذا التعدد الإصهار إلى كثير من القبائل لأن الحاكم على حد تعبير ابن خلدون يستند إلى عصبية ، ولما كان بنو أمية لم ينتصروا ويتمكنوا فى الأرض إلا بما توافر لديهم من عصبية فقد أدرك الحسن بما قد يتعرض له ذووه وذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول من الاندثار والانقراض إلا تعدد الزواج وكثرة النسل^(٢) .

أولاده

اختلف المؤرخون فى عدد أولاده اختلافاً كثيراً ، فقد روى أنهم اثنا عشر

(١) شرح ابن أبى الحديد .

(٢) نظرية الإمامة للدكتور أحمد محمود صبحي .

« ثمانية ذكور وأربع أناث » وقيل ستة عشر الذكور أحد عشر والإناث خمس ، وقيل غير ذلك وقد اتفق المؤرخون أنه لم يعقب أحد من أولاده سوى الحسن وزيد .

لهما أعلام أولاده فهم :

١ - القاسم : وقد استشهد مع عمه سيد الشهداء في واقعة كربلاء .
٢ - أبو بكر : واسمه عبد الله ، أمه أم ولد ويقال لها رملة ، برز يوم الطف يحامى عن دين الله ويذب عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشهد في تلك الواقعة .

٣ - عبد الله : استشهد مع عمه في كارثة كربلاء ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ، نظر إلى عمه الحسين وقد أحاطت به جيوش الأمويين ، فأقبل يشتد للدفاع عنه ، وسارع أبحر بن كعب بالسيف ليضرب الإمام الحسين : فصاح به الغلام : « ويلك يا ابن الخبيثة أتضرب عمي » واتقى الغلام الضربة بيده ، ثم رماه حرملة بن كاهل بسهم فذبجه .

٤ - زيد : وقد كان كريم الطبع جليل القدر كثير الإحسان قصده الناس من جميع الآفاق لطلب بره ومعروفه ، وكان يلي صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي سليمان بن عبد الملك عزله منها . ولما هلك واستخلف عمر بن عبد العزيز أرجعها إليه .

وقد مدحه محمد بن بشير الخارجي بقوله :

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلة نبي جدبها واخضر بالنبت عودها

وزيد ربيع الناس في كل شتوة
إذا أخلفت أنوارها ورعودها
حمول لأشتات الديات كأنه
سراج دجى قد فارقت سعودها

وكان يركب فيأتى سوق (الظهر) فيقف به فتزدحم الناس على النظر إليه
ويعجبون من خلقه ، ويقولون يشبه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى
وله من العمر تسعون سنة ورثاه جماعة من الشعراء منهم قدامة بن موسى
الحجيمى بقوله :

فإن يك زيد غالت الأرض شخصه
فقد بات معروف هناك وجود
وإن يك أمسى رهن رمس فقد توى
به وهو محمود الفعال فقيد
سميع إلى المضطر يعلم أنه
سيطلبه المعروف ثم يعود
وليس بقوال وقد حظ رحله
للمتمس المعروف أين تريد
إذا قصر الوعد الذى قد نعى به
إلى المجد آباء له وجدود
مناديل للمولى محاشيد للقرى
وفي الروع عند النائبات أسود
إذا مات منهم سيد قام سيد
كريم فيبنى مجدهم وبشيد

٥ - الحسن : وقد حضر مع عمه الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء
فقاتل معه حتى سقط جريحاً ثم أنقذ ورجع إلى المدينة وتزوج بابنة عمه
(فاطمة بنت الحسين) .

وقيل توفى وعمره خمس وثلاثون سنة مسموماً وقد سقاه السم الوليد
ابن عبد الملك .

أخلاقه

كان النبي صلى الله عليه وسلم في عظم أخلاقه مثالا للرحمة الإلهية التي تملأ القلوب البائسة الحزينة رجاء ورحمة ، وكان يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنازتهم ويحيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة مملوك ولا فقير ، ومن جالسه صابره حتى يكون جليسه هو المنصرف وما أخذ أحد بيده فجزبها منه حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها ، وكان حريصاً على تطيب النفوس واجتناب الإمامة لأي إنسان .

وكل هذه الأخلاق الرفيعة قد تمثلت في الإمام الحسن بحكم ميراثه من جده العظيم صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر رجال التاريخ نوادر كثيرة من مكارم أخلاقه منها :

(أ) أنه مر على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق ، وهم يأكلون منها فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول : « إن الله لا يحب المتكبرين » ، ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم بنعمه وإحسانه .

وصفة التواضع هذه تدل على كمال النفس وسموها وشرفها ، وفي الحديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا برحمتكم الله » .

(ب) ومن آيات أخلاقه أنه مر على صبية يتناولون الطعام فدعوه

لمشاركتهم فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى منزله ففتحهم ببرد ومعروفه ،
وقال : (اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطمعوني ونحن نجد مما أعطيناهم) .

(ج) ومن مكارم أخلاقه أنه كان يقابل الإساءة بالإحسان فقد كان
عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها فقال عليه السلام لغلامه :

- من فعل هذا بها ؟

- أنا

- لم ذلك ؟

- لأجلب لك الهم والغم .

فتبسم عليه السلام وقال له : لأسرك ، فأعتقه وأجزل له في العطاء .

(د) ومن عظيم أخلاقه أنه كان جالساً في مكان فأراد الانصراف منه

فجاءه فقير فرحب به ولاطفه وقال له :

.. إنك جلست على حين قيام منا أفأذن لي بالانصراف .

- نعم يا بن رسول الله .

ويدل ذلك على أن مراعاة حق الجليس من الآداب الاجتماعية التي

توجب المحبة والألفة وتوجد التعاون والترابط بين الناس ، فلذلك أمر الإسلام
بها وحث عليها .

(هـ) واجتاز على الإمام شخص من أهل الشام ممن غذاهم معاوية

بالكراهية والحقد على آل البيت ، فجعل يكيّل للإمام السب والشتم والإمام

ساكت لم يرد عليه شيئاً من مقالته ، وبعد فراغه التفت الإمام فحاطبه بناغم

القول وقابله ببسات فياضة بالبشر قائلًا :

« أيها الشيخ : أظنك غريباً ، لو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا
أرشدناك ولو استحملتنا حملناك ، وإن كنت جائعاً أطعمناك ، وإن كنت
محتاجاً أغنيك وإن كنت طريداً آويناك » .

وما زال عليه السلام يلاطف هذا الشامي ليقطع روح العداة والشر من
نفسه حتى ذهل ، ولم يطق رد الكلام وبقي حائراً خجلاً كيف يعتذر للإمام ،
وكيف يمحو الذنب عنه ، وطفق يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته
فيمن يشاء » .

وهكذا كان الإمام الحسن رضي الله عنه مثالا للإنسانية الكريمة ورمزاً
للمخلوق العظيم ، لا بشره الغضب ولا يزعمه المكروه ، قد وضع نصب عينيه
قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولي حميم) .

وقد قابل جميع ما لاقاه من سوء أو أذى أو مكروه من الحاقدين عليه
بالصبر والصفح الجميل ، حتى اعترف ألد خصومه مروان بن الحكم بسمو
حلمه وعظيم خلقه ، وذلك حينما انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى ، فبادر مروان
إلى حمل جثمانه .

فقال له سيد الشهداء : « تحمل اليوم سريره وقد كنت بالأمس تجرعه
الغيظ » .

فقال : « إني كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال » .

لقد كان الإمام كجده الرسول في سعة حلمه وعظيم أخلاقه وصفحه
عن أساء إليه .

وقد روى التاريخ نوادر كثيرة من أخلاقه دلت على أنه في طليعة
الأخلاقين والمساهمين في بناء الأخلاق والآداب في دنيا العرب والمسلمين .

جراته

كان الإمام الحسن رضي الله عنه مع مسالته يصون كرامته في موقف
الجد .

روى ابن أبي حديد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

دخل الحسن بن عليّ على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في
مجلس ضيق فجلس عند رجليه ، فنحدث معاوية ما شاء أن يتحدث ، ثم
قال : عجيباً لعائشة تزعم أني في غير ما أنا أهله ، وأن الذي أصبحت فيه
ليس لي بحق ، وما لها ولهذا ، يغفر الله لها ، إنما كان ينازعني في هذا الأمر
أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به .

فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية .

قال : أي والله .

قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟

قال : ما هو ؟

قال : جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وقال : يا ابن أخى بلغنى أن عليك ديناً .

قال : إن لعلّ ديناً .

قال : كم هو ؟

قال : مائة ألف .

قال : قد أمرنا لك بثلاثمائة ألف ، مائة منها لديك ، ومائة تقسمها في

أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرماً واقبض صلتك .

فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية : تالله ما رأيت

رجلاً استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمائة ألف .

قال : يا بني إن الحق حقهم ، فمن أتاك منهم فاحث له .

وكذلك جابه معاوية بأشد مما تقدم ، حين قام معاوية خطيباً على

المنبر ، فتهكم على أمير المؤمنين الإمام عليّ ، وقال : من عليّ ؟

فقال الإمام الحسن : إن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له عدواً من

المنافقين ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) ، وأنا

ابن عليّ وأنت ابن صخر ، وأملك هند وأمي فاطمة ، وجدتك قبيلة وجدتي

خديجة ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدك عتبة بن ربيعة فلعن

الله الأمانة حسباً وأخملنا ذكراً وأقدمنا كفرةً وأشدنا نفاقاً .

فصاح أهل المسجد (آمين) .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : (وأنا أقول آمين) .

فقطع معاوية كلامه وفر إلى منزله .

والظاهر أن جرأة الإمام الحسن هي صفة لازمة منذ الصغر فقد دخل المسجد النبوي في طفولته ولم يكن قد بلغ يومئذ الثامنة من عمره ، فرأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه يغطب على المنبر ، فهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي » .

فابتسم الصديق رضي الله عنه ، وقال في حنان : « يا ابن بنت رسول الله ، صدقت والله ، ما كان لأبي منبر ، وإنه لمنبر أبيك » .

كرمه وسخاؤه

عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلقان يحبهما الله وهما حسن الخلق والسخاء » . وقال عليه الصلاة والسلام : « السخاء من الإيمان » . والسخاء يتم عن طيب القلب ، ويكشف عن الفضائل النفسية ، ويحكى عن رحمة الإنسان ورأفته ، ومن الطبيعي أنه إنما يكون كذلك فيما إذا كان بذله بداعي الخير والمعروف لا بداعي السمعة والمديح والثناء ، وغير ذلك من الدواعي التي لا تمت إلى الإحسان بصلة ، وقد حدث التاريخ عن أناس كانوا يهبون الألوף للوافدين ، ويبدلون القرى للأضياف ، ولكن سرعان ما انكشف أنه تصنع لا اتصال له بحقيقة الكرم والمعروف ، إن السخاء الحقيقي هو بذل الخير بداعي الخير ، وبذل الإحسان بداعي الإحسان ، وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها في الإمام أبي وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها في الإمام أبي محمد عليه السلام ، حتى لقب بكريم أهل البيت .

وقد وصفه أبوه بالكرم والمسألة ، فقد روى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيب الفزاري قال :

« سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : أنا أحدثكم عنى وعن أهل بيتى ، أما عبد الله ابن أخى (أى ابن جعفر زوج السيدة زينب) فصاحب لهُو وسماح .

وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان ، فتى من فتیان قريش ، ولو التقت حلقتنا البطلان^(١) لم يغن عنكم شيئاً فى الحرب . وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا » .

وقد تلقى الإمام الحسن رضى الله عنه هذه المكرمة من سلفه الطاهر الذى عرف بالسخاء والمعروف ونجدة الضعيف والإحسان إلى كل منقطع ومحروم . وفى جده الأعلى يقول القائل :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستون عجاف
وكان الحسن لا يعرف للمال قيمة ولا يرى له أهمية سوى ما يرد به
جوع جائع ، أويكسوبه عارياً ، أويغيث به ملهوفاً ، أويبنى به دين غارم ،
ومن كان ندى الكف مبسوط اليدين بالعطاء متمسكاً بأهداف السخاء بعيداً
عن البخل وضروبه ، فأعظم به من خير عميم . قد كان السخاء عنصراً من
عناصر ذات الحسن ومقوماً من مقومات مزاجه ، وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل
لا قط ، وقيل له :

(١) مثل يضرب للأمر إذا اشتد أو جاوز الحد .

– لأى شيء لا نراك ترد سائلاً ؟

فأجاب : « إني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحي أن أكون سائلاً وأرد سائلاً ، وإن الله عودنى عادة أن يفيض نعمه عليّ ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة أن يمعنى العادة » ، وأنشأ يقول :

إذا ما أتاني سائل قلت مرحباً بمن فضله فرض على معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الغنى حين يسأل
ويقول في الجود والسخاء :

إن السخاء على العباد فريضة لله يقرأ في كتاب محكم
وعدّ العباد الأسخياء جنانه وأعد للخلاء نار جهنم
من كان لا تندى يدها بنائل للراغبين فليس ذلك بمسلم
وله أيضاً :

خلقت الخلائق من قدرة فمنهم سخى ومنهم بخيل
فأما السخى ففي راحة وأما البخيل فحزن طويل

وكانت الوفود من المرتزقة والمحتاجين تزدحم عليه ، فيغدق عليهم بيره وإحسانه ويجزل لهم المزيد من العطاء ، وقد ذكر التاريخ نوادر كثيرة من كرمه وجوده ، منها :

١ – جاءه أعرابي سائلاً ، فقال : « أعطوه ما في الخزانة » ، وكان فيها عشرة آلاف درهم .

فقال له الأعرابي : يا سيدى هلا تركنى أبو حجاجتى وأنشر مدحتى ؟

فأجابه الإمام :

نحن أناس نوالنا خضل يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا خوفاً من ماء وجه من يسأل
لو علم البحر فضل نائلنا لفاض من بعد فيضه خجل

٢ - واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة
ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى .

فقال له الإمام : ما حملك على ذلك ؟

- إني لأستحي أن آكل ولا أطعمه .

رأى الإمام فيه خصلة من أحب الخصال عنده ، فأحب أن يجازيه
على صنعه ويقابل إحسانه بإحسان ، فقال له :

- لا تبرح من مكانك . ثم انطلق فاشتراه من مولاه واشترى الحائط
(البستان) الذى هو فيه فأعتقه وملكه إياه .

٣ - واجتاز يوماً فى بعض أزقة المدينة فسمع رجلاً يسأل الله أن يرزقه
عشرة آلاف درهم ، فانطلق إلى بيته وأرسلها إليه بالوقت .

٤ - وجاءه شخص يظهر العوز والحاجة فقال له :

ما هذا حق سؤالك ، يعظم لدى معرفتى بما يجب لك ويكبر على ویدی
تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله قليل ، وما فى ملكى وفاء
لشكرك فإن قبلت منا الميسور ، ورفعت عنا مؤنة الاحتفال والاهتمام فقلت

فأجابه الرجل : يا بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل القليل وأشكر العطية واعذر على المنع .

فأحضر رضى الله عنه وكيله وحاسبه وقال له : (هات الفاضل) وكان الفاضل خمسين ألف درهم فدفعها إليه ولم يكف عليه السلام بذلك بل قال لوكيله : ما فعلت بالخمسمائة دينار التي عندك ؟ فقال له : هي عندي فأمره بإحضارها ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر له .

إن قوله رضى الله عنه (الكثير في ذات الله قليل) ينم عن أن هذا العطاء إنما هو في سبيل الله تعالى لا يتغى من أحد جزاء أو شكوراً .

٥ - ومن ^(١) مكارمه أنه خرج مع سيد الشهداء الإمام الحسين وابن عمهما عبد الله بن جعفر وافدين إلى بيت الله الحرام ، وفي أثناء الطريق أصابهم جوع وعطش وقد سبقتهم أنقاهم فانعطفوا على بيت قد ضرب أطنايه في وسط تلك البداء القاحلة ، فلما وصلوا إلى البيت لم يروا فيه إلا عجوزاً فطلبوا منها شرباً وطعاماً فأجابت بما طبعت عليه نفس الكريم قائلة : نعم . . إنها النفس إذا جبلت على الخير وطبعت فيها الأريحية قدمت في سبيل العز والمجد كل ما تملك ، لم يك عند العجوز سوى شاة هي كل ما تملك مما أظلت الخضراء وأقلته الغبراء .

فتقدمت ويدها الشاة قائلة لهم :

(دونكم هذه الشاة فاحلبوها واشربوا لبنها) .

(١) حياة الإمام الحسن بن علي للأستاذ باقر شريف .

فلما فعلوا ذلك تقدمت إليهم مرة أخرى قائلة :

(أقسم عليكم إلا ما ذبحها أحدكم حتى أهبي لكم الحطب لشيها)

ف فعلوا ذلك وهيات العجوز الحطب ، وبعد الفراغ من تناول الطعام عزموا على الرحيل فتقدموا إليها وعرفوها بشخصياتهم ليجازوها على صنعها خيراً إن رجعوا إلى وطنهم قائلين :

(يا أمة الله إنا نفر من قريش نريد حج بيت الله الحرام فإذا رجعنا سالمين فهلمى إلينا لنكافئك على هذا الصنيع الجميل) .

ثم انصرفوا لشأنهم ، ثم أقبل رب البيت فأخبرته العجوز بالقصة فاستولى عليه الغضب ذلك لأن الشاة هي مصدر القوت وإدرار الرزق عليهم .

فقال لها : (ويحك أتذبحين الشاه لأناس لا تعرفينهم ، ثم تقولين إنهم نفر من قريش) .

وسار الزمن فضت سنة وأقبلت أخرى فصادفت البادية أزمة شديدة لأن السماء قد منعتها قطرها حتى قلت موارد العيش وانعدمت أسباب القوت ، فرحلا عن البادية ونزلا المدينة ولم يجدا عملاً يحيطان به خيراً سوى التقاط البعر من الطرقات والشوارع ، فاتخذوا ذلك مهنة لهما ، وفي يوم من الأيام وهما على عملهما أرادت السعادة أن تحنو عليهما فلمح الحسن العجوز فعرفها ، وقد حل وقاء الدين ، والمعروف في ذمة الأحرار دين ، فأمر غلامه أن يأتي بها إليه ، فلما مثلت بين يديه قال الإمام الحسن لها : أتعرفيني يا أمة الله ؟

- أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا .

- لست أعرفك .

- إن لم تعرفيني فأنا أعرفك .

ثم أمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطها ألف دينار ،
ثم أمر غلامه أن يذهب بها إلى أخيه الحسين رضى الله عنه ويعرفه بها ،
فأخذها الغلام فلما دخلت عرفها سيد الشهداء فقال للغلام :
- كم أعطها أخى ؟

فأخبره الغلام بعطائه فوصلها عليه السلام بمثل ذلك ، ثم بعث بها إلى
عبد الله بن جعفر فلما دخلت عليه عرفها ، فأمر لها بألني شاة وألني دينار ،
فأخذت ذلك جميعاً وانصرفت وقد تغير حالها من فقر مدقع إلى غناء وثروة
حسدها عليه كل من عرفها ، كل ذلك من بر الحسن وفضله .

٦ - واشترى عليه السلام بستاناً من الأنصار بأربعمائة ألف ، ثم
بلغه بعد ذلك أنهم قد احتاجوا إلى ما فى أيدي الناس فردد إليهم ، وبذلك
أنقذهم من ذل السؤال وهذا أفضل أنواع السخاء .

٧ - وحيته جارية بطاقة من ريحان فقال عليه السلام لها : (أنت حرة
لوجه الله) فلامه أنس على ذلك : فأجابه أدبنا الله تعالى فقال : (إذا حييت
بتحية فحيوا بأحسن منها) وكان أحسن منها إعتاقها .

٨ - وهناك قصة تروى عن مكارمه وتتلخص فى أن مروان بن الحكم
قال : « إني لمشغوف ببغلة الحسن بن علي فمن يأتيني بها ؟ » .

فانبرى له ابن أبي عتيق قائلاً :

— أنا آتيك بها لكن بشرط أن تقضى لي ثلاثين حاجة ؟

— ألترم لك بذبك .

فقال ابن أبي عتيق لمروان : إذا اجتمع الناس عندك العشية فإني آخذ

في مآثر قريش وأمسك عن الحسن فلمنى على ذلك .

فلما اجتمع الناس أخذ ابن أبي عتيق في مآثر قريش وسكت عن ذكر

فضائل الإمام الحسن .

فقال له مروان : ألا تذكر أولية أبي محمد وله في هذا ما ليس لأحد منا .

فقال ابن أبي عتيق : إنما كنا في ذكر الأشراف ولو كنا في ذكر

الأنبياء لذكرنا فضائل أبي محمد .

ولما خرج الإمام الحسن رضى الله عنه تبعه ابن أبي عتيق ، فلما نظر إليه

الحسن عليه السلام تبسم وعرف الغاية من مديحه فقال رضى الله عنه له :

ألك حاجة ؟ فقال نعم ذكرت البغلة ، فنزل عليه السلام ودفعها إليه .

٩ - وقصة أخرى تروى وملخصها أن فقيراً جاءه يشكو حاله ولم يكن

عنده عليه السلام في ذلك اليوم شيء فعز عليه الأمر واستحى من رده فقال

رضى الله عنه له : إني أدلك على شيء يحصل لك منه الخير ، فقال الفقير

يا بن رسول الله ما هو ؟

قال رضى الله عنه : اذهب إلى الخليفة فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها

وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير .

قال : يا بن رسول الله حفظني أياها .

قال عليه السلام : قل له « الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها ولم يهتكها بجلوسها على قبرك » .

وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزاه بها ، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة .

وقال له : أكلامك هذا ؟

- لا ، وإنما كلام الإمام الحسن .

فقال الخليفة : صدقت فإن معدن الكلام الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرى .

زهده

رفض الإمام جميع مباحج الحياة وزهد في ملاذها ونعيمها ، واتجه إلى الدار الآخرة التي أعدها الله للمتقين من عباده وقال عليه السلام : « من عرف الله أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل إذا تفكر حزن ، وقد ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله » .

وقد تحدث رضى الله عنه عن عزوفه عن الدنيا واقتناعه بالقليل منها

بقوله :

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني وشربة من قراح الماء تكفيني
وطرة من دقيق الثوب تستترني حياً وإن مت تكفيني لتكفيني

ويقول أيضاً :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى إن المنية نازلة بك يا فتى
أصبحت ذا فرح كأنك لا ترى أحباب قلبك في المقابر والبلى
وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

يا أهل لذات الدنيا لا بقاء لها إن اغتراراً بظل زائل حمق
ويقول في ذم المغرور في الدنيا والمفتون بحبها :

قل للمقيم بغير دار إقامة حان الرحيل فودع الأحبابا
إن الذين لقيتهم وصحبهم صاروا جميعاً في القبور ترابا

تقواه وورعه

كان الإمام الحسن إذا دخل المسجد رفع صوته قائلاً :

(إلهي ضيفك بيابك يا محسن قد أتاك المسىء فتجاوز عن قبيح ما
عندي بجميل ما عندك يا كريم) .

وإذا شرع في الصلاة بدأ عليه الخوف والخضوع والخشوع حتى ترتعد
جميع فرائضه ، ومن مظاهر عبادته وخوفه من الله أنه إذا ذكر الجنة والنار
اضطرب اضطراب السليم ، فسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، وإذا ذكر
الموت وما يعقبه من بعث ونشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين . وإذا ذكر
العرض على الله شق شقة يغشى عليه منها ، وإذا حضر جنازة ظهرت عليه
السكينة أياً ما ، وإذا مات في جواره ميت سمع منه النحيب والبكاء كما

يسمع من دار الميت .

وأما تلاوته للذكر الحكيم فكان يتلو آياته المحكمة يامعان وتدبر فكان لا يمر بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلا قال : لبيك اللهم لبيك .
ومن مظاهر عبادته أنه كان يقرأ كل ليلة سورة الكهف وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله حتى تطلع الشمس .

وروى ابن قتيبة أن رجلاً أتى الحسن بن علي يسأله فقال الحسن إن المسألة لا تصلح إلا في غُرم فادح أو فقر مدقع أو حَمالة مُفْطَعة . فقال الرجل ما جئت إلا في إحداهن - فأمر له بمائة دينار ثم أتى الرجل الحسين ابن علي فسأله فقال له مثل ما قاله أخوه فرد عليه كما رد علي الحسن فقال كم أعطاك - قال مائة دينار فنقصه ديناراً كره أن يساوى أخاه ، ثم أتى الرجل عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء فقال له الرجل إني أتيت الحسن والحسين واقتصرَ كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال عبد الله ويحك : وإني تجملني مثلهما إنهما غُرا العلم غُرا المال .

ومما يدل على عظيم زهده أنه زهد في الملك خوفاً من دماء المسلمين وطلباً لمرضاة الله ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين من المسلمين عظيمتين » : كما سيأتي ذلك تفصيلاً بعد قليل ، وقد قال : والله ما أحببت منذ علمت ما ينفعني ويضرني أن ألى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن يهراق في ذلك محجمة دم ، وذلك هو الزهد بعينه . قد بينت ذلك سابقاً .

هيئته ووقاره

الإمام الحسن سيد في حدائته وعظيم منذ صغره يلحق به أبو هريرة ويقول له : السلام عليك يا سيدى لأنه سيده رغم التفاوت بينهما في السن بدليل أنه يقسم دون أن يخاف معرفة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الحسن سيد . . .

إن شخصية الحسن كانت تملأ العيون وتيمن على النفوس لأنه قد التفت به عناصر الإمامة وتمثلت فيه هيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد كان معاوية وهو سلطانة يهابه ويخشاه . ولقد صار للحسن هيئة واحترام يضطران ابن عباس على جلاله وصحبته أن يأخذ له الركاب إذا ركب ويرى ذلك فرصة سعيدة يتبرك بها هو وأرفع الصحابة كعباً وأدناهم من جده منزلة لأنه يتمتع منذ طفولته الرشيدة بفطنة حادة وحمية مهذبة متزنة تميزه أشياء لا تتوافر في غير ربيب النبي بل تفرض على محمد بن إسحاق أن يقول (ما تكلم عندى أحد كان أحب إليّ إذا تكلم ألا يسكت من الحسن بن علي وما سمعت منه كلمة فحش قط . . .)

وقد بلغ من عظيم هيئته أنه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق ، لأنه لا يمر أحد إلا جلس إجلالاً وإكباراً له فإذا علم ذلك قام ودخل البيت .

ومن عظيم هيئته وسمو مكانته في نفوس المسلمين أنه ما اجتاز مع أخيه

على ركب في حال سفرهما إلى بيت الله الحرام ماشيين إلا ترجل ذلك الركب تعظيماً وإكباراً لهما ، حتى ثقل المشى على جماهير الحجاج فكلّموا سعد بن أبي وقاص في ذلك فبادر إلى الإمام وقال له : « يا أبا محمد ، إن المشى قد ثقل على الحجاج لأنهم إذا رأوكما لم تطب نفوسهم بالركوب فلوركبتما رحمة لهم » .

فأجابه الإمام بما ينم عن نفس قد عاهدت الله أن تبذل في مرضاته كل غال ونفيس قائلاً :

« لا نركب فقد عاهدنا الله أن نؤم بيته ماشين ، ولكن ننتكب الطريق »
كما جاء ذلك في المناقب .

وسار عليه السلام في بعض طرق يثرب ، وقد لبس حلة فاخرة وركب بغلة فارهة ووجهه الشريف يشرق حسناً وجمالاً ، وقد حفت به خدمه وحاشيته فرآه بعض اليهود فبادر إليه أحدهم وقال له :

- يا بن رسول الله عندي سؤال ؟

- ما هو ؟

- إن جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فأنت المؤمن وأنا الكافر وما الدنيا إلا جنة لك تنعم فيها وتستلذ بها وأنت مؤمن ، وما أراها إلا سجنًا قد أهلكني حرها وأجهدني فقرها ؟
- لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لعلمت أني قبل انتقالي إليها وأنا في هذه

البحالة في سجن ، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في دار الآخرة من سعير نار جهنم ، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنك في جنة واسعة ونعمة جامعة^(١) ، وتركه الإمام واليهودي يتميز من الغيظ والحقد .

ورأى هبة الإمام ووقاره بعض الأغبياء من الحاقدين عليه ، فقال له : « إن فيك عظمة » .

فأجابه الإمام : إن في عزة ، ثم تلا قوله تعالى : (والله العزة لرسوله وللمؤمنين) . كما جاء في المناقب .

إن الحسن كان يحكى جده الرسول صلى الله عليه وسلم في هيئته وسؤدده .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « أما الحسن فإن له هيئتي وسؤددي ، وأما الحسين فإنه له جرأتي وجودي » .

وكل هذا يفسر لنا ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما حين مات الإمام الحسن : « أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام » وأنت تدرك من كلمة ابن عباس هذه أى مكانة كانت للإمام الحسن في المجتمع وأى فراغ كان يملؤه في الناس .

علمه وفصاحته وبلاغته :

أسلفت القول بأن الإمام الحسن رضى الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث حفظها عنه ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الإصابة لابن حجر ، وقد وعى حديث الرسول مع أنه كان دون الثامنة والحقيقة أن للبيئة التي نشأ فيها دخلاً عظيماً في تعليمه ، فبعد جده تولى الإمام على كرم الله وجهه تربيته وثقافته العلمية .

وقد نشأ على بن أبي طالب في الإسلام منذ طفولته وتربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرف علمه من بحر النبوة الأصنى حتى امتلاً وصار كما قال الإمام الحسن البصرى ربانى هذه الأمة .

وكان يتحدث بنعمة ربه فيقول : « أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فوالله ما من آية في كتاب الله عز وجل إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل » لذلك كان علم الإمام الحسن موروثاً بحق ومغروفاً من المنبع الأصنى فكان علماً خالصاً ، حرص عليه ونفع به ، وقدره قدره حتى روى عنه أنه كان يقول لبنيه وبنى أخيه الإمام الحسين : « تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه في بيوتكم » . وفي تفسير كتاب الله تعالى سئل ذات يوم عن تفسير قوله تعالى في سورة (البروج) (وشاهد ومشهود) فأجاب بقوله أما الشاهد فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

مئيراً) . وأما (المشهد) فهو يوم القيامة وذلك في قوله تعالى : (ذلك يوم
مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) - وما إن سمع منه السائل هذا التفسير
المؤيد بكتاب الله حتى احتضنه واثني عليه قائلاً : أشهد أنك من بيت النبوة .
أما بلاغته : فقد كان من أروع البلغاء في إصابته للمناسبات ، ومن
أقدرهم على الإيجاز والإعجاز والإبداع في الكلام ، فقد سئل عن مكارم
الأخلاق . فقال : مكارم الأخلاق عشرة : صدق اللسان ، والتذم^(١)
على الجار ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، وحسن الخلق ، والمكافأة
بالصنائع ، وصلة الرحم ، ومعرفة الحق للصاحب ، وقرى الضيف ورأسهن
الحياة .

وقال في فضل القرآن :

إن هذا القرآن فيه مصابيح النور ، وشفاء الصدور فليجل جال بضوئه
وليلجم الصفة قلبه فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشی المستنير في
الظلمات بالنور .

وقال في الدعاء :

- ما فتح الله عز وجل على أحد باب مسألة فخرن^(٢) عنه باب الإجابة ،
ولا فتح على رجل باب عمل فخرن عنه باب القبول ، ولا فتح لعبد باب شكر
فخرن عنه باب المزيد .

(١) التذم : مأخوذ من أذمه أى أجاره وأخذته تحت حمايته .

(٢) خرن : أغلق وسد .

وقال في السياسة :

- هي أن نرعى حقوق الله وحقوق الأحياء وحقوق الأموات ، فأما حقوق الله ، فإداء ما طلب والاجتناب عما نهى ، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك ولا تتأخر عن خدمة أمتك ، وأن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته ، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوى ، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم رباً يحاسبهم .

وقال له معاوية : ما يجب لنا في سلطانتنا ؟

الإمام : ما قال سليمان بن داود .

معاوية : وما قال سليمان ؟

الإمام : إنه قال لبعض أصحابه : أتدرى ما يجب على الملك في ملكه وما لا يضره إذا أدى الذى عليه منه ، إذا خاف الله في السر والعلانية وعادل في الغضب والرضا وقصد في الفقر والغنى ، ولم يأخذ الأموال غضباً ، ولم يأكلها إسرافاً وتبذيراً ، ولم يضره ما تمتع به من دنياه إذا كان من خلته .

وقال في الصديق والصاحب :

- ألا أخبركم عن صديق كان لى من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشبه ما لا يحل ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمد يداً إلا على ثقة لمنفعة ، كان لا يتشكى ولا يتبرم ، كان أكثر دهره

صامتاً فإذا قال بذ (أى تفوق وغلب) القائلين ، كان ضعيفاً مستضعفاً .
 فإذا جاء الجدل فهو الليث عادياً ، كان - إذا جامع العلماء - على أن يسمع
 أحرص منه على أن يقول ، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ،
 كان لا يقول ما يفعل ويشعل ما لا يقول ، كان إذا عرض له أمران لا يدري
 أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه ، كان لا يلوم أحداً
 على ما قد يقع العذر في مثله ، كان لا يقول حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً
 عدولاً .

المروءة والكرم والنجدة والحزم

التفت معاوية يوماً إلى الإمام الحسن ، وقال له : يا أبا محمد أربع خلال
 لم أجد من يمجيني عنها :

- ما هي ؟

- المروءة والكرم والنجدة والحزم .

- أما المروءة فأصلاح الرجل أمر دينه وحسن قيامه على ماله وإفشاء
 السلام والتحبب إلى الناس . وقال أيضاً : المروءة شح الرجل على دينه
 وإصلاحه ماله وقيامه بالحقوق .

- الكرم : العطية قبل السؤال ، والتبرع بالمعروف والإطعام في المحل .

- النجدة : الذب عن الجار والصبر عند الشدائد .

- الحزم : طول الأناة والاحتراس من جميع الناس .

الكبر والحرص والحسد :

- قال الإمام الحسن عليه السلام :
- هلاك الناس في ثلاث : الكبر والحرص والحسد .
- والكبر به هلاك الدين وبه لعن إبليس .
- والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة .
- والحسد رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل (١) .

التحريض على طلب العلم :

- قال الإمام الحسن لبيته : تعلموا العلم فإنكم صغار القوم اليوم وكبارهم غداً ، ومن لم يحفظ منكم فليكتب .
- وقال : علم الناس وتعلم علم غيرك ، فتكون قد أتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم .
- وقال : حسن السؤال نصف العلم (٢) .

فضل القرآن الكريم :

- يقول الإمام الحسن : إن القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور فليجل جلال بوضوئه وليلجم الصفة قلبه ، فإن التشكير حياة القلب البصير كما يمشی المستنير في الظلمات بالنور (٣) .

(٣) كشف الغمة .

(١ ، ٢) نور الأبصار .

السخاء والمعروف :

وكان عليه السلام يطوف في بيت الله الحرام ، فسأله رجل عن معنى

الجواد ؟

فقال له : إن لكلامك وجهين ، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذي يؤدي ما اقترض عليه ، والبخيل الذي يبخل بما اقترض عليه ، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له ، وإن منع منع ما ليس له .

وقال عليه السلام : المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه من ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد .

في القضاء والقدر :

وكتب الحسن البصري إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما ، يسأله عن القضاء والقدر ، فكتب الإمام الحسن بن علي يقول :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل ذنبه ربه فقد فجر وإن الله تعالى لا يطاع استكراهاً ولا يعصى بغلبة ، لأنه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فإن لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك ، ولو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم فإن ذلك عجز

في القدرة ، ولكن الله له فيهم المشيئة التي غيبتها عنهم ، فإن عملوا بالطاعة
فله المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم .

تقوى الله :

قال عليه السلام : « إن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتارككم سدى ،
كتب آجالكم وقسم بينكم معاشكم ليعرف كل ذي منزلة منزلته وأن ما قدر له
أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤنة الدنيا وفرغكم لعبادته
وحثكم على الشكر وافترض عليكم وأوصاكم بالتقوى ، وجعل التقوى منتهى
رضاه والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة ، وشرف كل عمل بالتقوى ،
فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى : (إن للمتقين مفازاً) . وقال :
(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) . فاتقوا الله
عباد الله واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ، ويسدده في أمره
ويهيئ له رشده ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ويعطيه رغبته مع الذين أنعم
الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقال عليه السلام :

يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً ، وارض بما قسم الله تكن
غنياً ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب الناس بمثل ما تحب
أن يصاحبوك به تكن عادلاً ، إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً وبينون
مشيداً ويأملون بعيداً ، أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً ،

يا ابن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فجد بما في
يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع ، وكان يتلو عقب كلامه هذا قوله
تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) .

ومر عليه السلام على قوم يلعبون ويضحكون في يوم عيد الفطر فوقف
عليه السلام والتفت إليهم قائلاً :

إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته
فسبق قوم ففازوا ، وقصر آخرون فخابوا ، فالعجب كل العجب من ضاحك
لاعب في اليوم الذي يثاب فيه المحسنون ويحسر فيه المبتلون ، وأيم الله لو
كشف الغطاء لعلموا أن المحسن مشغول بإحسانه والمسيء مشغول بإساءته ثم
تركهم عليه السلام وانصرف .

وفي المساجد يقول عليه السلام من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب
ثمان خصال :

آية محكمة ، وأخاً مستفاداً ، وعلماً مستطرفاً ، ورحمة منتظرة ، وكلمة
تدل على هدى أو تردعه عن ردى ، وترك الذنوب حياءً أو خشية .

الآداب الاجتماعية :

وجه الإمام على إلى الحسن أسئلة هي البرنامج الصحيح للأخلاق
والفضائل فأجاب الحسن بما هو عفو الخاطر فكان الجواب آية من آيات
البلاغة والإعجاز :

- الإمام على : يا بني ما السداد - الحسن : يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف .
- » : ما الشرف ؟ - » : اصطناع العشيعة وحمل الجريرة .
- » : ما المروءة ؟ - » : العفاف وإصلاح المرء ماله .
- » : ما الدينية ؟ - » : النظر في السير ومنع الحقير
- » : ما اللؤم ؟ - » : احتراز المرء نفسه وبذله عرشه .
- » : ما السباحة ؟ - » : البذل في العسر واليسر .
- » : ما الشح ؟ - » : أن ترى ما في يدك شرفاً وما أنفقته تلفاً .
- » : ما الإخاء ؟ - » : الوفاء في الشدة والرخاء .
- » : ما الجبن ؟ - » : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .
- » : ما الغنيمة ؟ - » : الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا
- » : ما الحلم ؟ - » : كظم الغيظ وملك النفس .
- » : ما الغنى ؟ - » : رضى النفس بما قسم الله وإن قل .
- » : ما الفقر ؟ - » : فإنما الغنى غنى النفس
- » : ما المنعة ؟ - » : شره النفس في كل شيء .
- » : ما الذل ؟ - » : شدة البأس ومقارعة أشد الناس .
- » : ما الجرأة ؟ - » : الفزع عند المصدوقية
- » : ما الجرأة ؟ - » : موافقة الأقران .

- الإمام على : ما الكلفة ؟ - الحسن : كلامك فيما لا يعينك .
- » : ما المجد ؟ - » : أن تعطى في الغرم وأن تعفو عن
الجرم .
- » : ما العقل ؟ - » : حفظ القلب كل ما استرعيته .
- » : ما الحزق ؟ - » : معاداتك إمامك ورفعك عليه
كلامك .
- » : ما الثناء ؟ - » : إتيان الجميل وترك القبيح .
- » : ما الحزم ؟ - » : طول الأناة والرفق بالوفاة
والاحتراس من الناس بسوء الظن
هو الحزم .
- » : ما الشرف ؟ - » : موافقه الإخوان .
- » : ما السفه ؟ - » : اتباع الدناءة ومصاحبة الغواة
- » : ما الغفلة ؟ - » : تركك المسجد وطاعتك المفسد .
- » : ما الحرمان ؟ - » : تركك حظك وقد عرض عليك .
- » : ما السيد ؟ - » : الأحمق في ماله المتهاون في
عرضه ، يشتم فلا يجيب ،
المتحزن بأمر العشيبة هو السيد .
- » : ما الزهد ؟ - » : الرغبة في التقوى والزهادة في
الدنيا .

الإمام على : ما العي ؟ - الحسن : العيب باللحية وكثرة التخنح عند المنطق .

« : ما الرأفة ؟ - » : النظر في اليسير ومنع الحقير .

ومن حكمه عليه السلام :

أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلاً هدى للتي هي أقوم ووفقه الله للرشاد وسدده للحسنى ، فإن جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مخذول فاحترسوا من الله بكثرة الذكر . واخشوا الله بالتقوى ، وتقربوا إلى الله بالطاعة فإنه قريب مجيب .

قال الله تبارك وتعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) فاستجيبوا لله وآمنوا به فإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاضم ، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا ، و [عز] الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذللوا [له] ، وسلامة الذين يعلمون ما قدره الله أن يستلموا له ، ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة ولا يضلوا بعد الهدى . واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا التقي حتى تعرفوا صفة الهدى ، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه ، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرّفه ، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم القرية على الله والتحريف ، ورأيتم كيف يهوى من

يهوى ولا يجهلنكم الذين لا يعلمون . والتمسوا ذلك عند أهله فإنهم خاصة نور يستضاء بهم وأئمة يقتدى بهم ، بهم عيش العلم وموت الجهل - وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم وحكم منطقهم عن صمتهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وقد خلت لهم من الله سنة ومضى فيهم من الله حكم إن في ذلك لذكرى للذاكرين ، واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته ولا تعقلوه عقل روايته ، فإن رواة الكتاب كثير ورعايته قليل والله المستعان .

جوابه في مسائل سئل عنها

بعث معاوية رجلاً متكرراً يسأل الإمام علياً رضي الله عنه عن مسائل سأله عنها ملك الروم ، فلما دخل الكوفة وخاطب أمير المؤمنين أنكره فقرره فاعترف له بالحال ، فقال الإمام على قاتل الله ابن آكلة الأكباد ما أضله وأضل من معه ، قاتله الله لقد أعتق جارية ما أحسن أن يتزوجها - حكم الله بيني وبين هذه الأمة قطعوا رحمتي وصغروا عظيم منزلتي وأضاعوا أيامي - على بالحسن والحسين ومحمد فدعوا فقال عليه السلام يا أخا أهل الشام هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ابني فاسأل أيهم أحببت .

فقال الشامي : أسأل هذا - يعني الحسن عليه السلام ثم قال :

كم بين الحق والباطل - وكم بين السماء والأرض - وكم بين المشرق والمغرب ؟ وعن هذا المحو الذي في القمر ، وعن قوس قزح - وعن هذه الحجرة وعن

أول شيء انتضح على وجه الأرض - وعن أول شيء اهتر عليها - وعن العين التي تأوى إليها أرواح المؤمنين والمشركين - وعن المؤنث - وعن عشرة أشياء بعضها أشد من بعض ؟

فقال الحسن عليه السلام : يا أخا الشام بين الحق والباطل أصابع ما رأيت بعينك فهو الحق - وقد تسمع بأذنك باطلاً كثيراً - وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومدُّ البصر - فمن قال غير هذا فكذب .

وبين المشرق والمغرب يوم مطرد للشمس تنظر إلى الشمس حين تطلع وتنظر إليها حين تغرب من قال غير هذا فكذب . وأما هذه المجرة فهي إشراف السماء مهبط الماء المنهمر على نوح عليه السلام . وأما قوس قزح فلا تقل : قزح فإن قزح شيطان ولكنها قوس الله وأمان من الفرق . وأما المحو الذي في القمر فإن ضوء القمر كان مثل ضوء الشمس فحاه الله . وقال في كتابه : فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) .

وأما أول شيء انتضح على وجه الأرض فهو وادي دلس . وأما أول شيء اهتر على وجه الأرض فهي النخلة . وأما العين التي تأوى إليها أرواح المؤمنين فهي عين يقال لها سلمى . وأما العين التي تأوى إليها أرواح الكافرين فهي عين يقال لها برهوت (١) - وأما المؤنث فإنسان لا يدرى امرأة هو أم رجل فينتظر به الحلم فإن كانت امرأة بانث ثدياها ، وإن كان رجلاً خرجت

(١) برهوت : واد باليمن أو بشر بحضرموت - وقيل هو اسم البلدى الذى فيه البئر رالحتها متنة فظيمة جدا .

لحيته . وإلا قيل له يبول على الحائض فإن أصاب الحائض بوله فهو رجل وإن
نكص كما ينكص بول البعير فهي امرأة .

وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض فأشد شيء خلق الله الحجر وأشد
من الحجر الحديد ، وأشد من الحديد النار ، وأشد من النار الماء ، وأشد من
الماء السحاب ، وأشد من السحاب الريح ، وأشد من الريح الملك ، وأشد
من الملك ملك الموت ، وأشد من ملك الموت الموت ، وأشد من الموت
أمر الله .

قال الشامي : أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كلامه في الاستطاعة :

كتب الحسن بن أبي الحسن البصرى إلى أبي محمد الحسن بن علي
عليهما السلام :

« أما بعد فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام
النيرة الشاهرة ، أو كسفينة نوح عليه السلام التي نزلها المؤمنون ونجا فيها
المسلمون ، كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في
الاستطاعة فأخبرنا بالذى عليه رأيك ورأى آباءك عليهم السلام . فإن من علم
الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم ، ذرية بعضها من
بعض والله سميع علم » .

فأجابه الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم - وصل إلى كتابك ولولا ما

ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذأ ما أخبرتكَ . أما بعد فن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أن الله يعلمه فقد كفر ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر .

إن الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم ، بل أمرهم تخيراً ونهاهم تحذيراً ، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً ، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل ، وإن لم يفعل فليس هو الذى حملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً ، بل منّ عليهم بأن بصّروهم وعرفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم ، لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة ، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه ، والله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين والسلام على من اتبع الهدى .

وحيثما قال له معاوية بعد الصلح : (اذكر فضلنا) حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي وآله ثم قال : (من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن ابن رسول الله ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن المصطفى بالرسالة ، أنا ابن من صلت عليه الملائكة ، أنا ابن من شرفت به الأمة ، أنا ابن من كان جبريل السفير من الله إليه ، أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين) .

وهنا قال له معاوية : (يا حسن عليك بالرّطب فانعته لنا) .
قال : نعم يا معاوية الريح تلقحه ، والشمس تُنفضه - والقمر يلوّنه ، والحر ينضجه ، والليل يبرده .

ثم أقبل على منطقته فقال : أنا ابن المستجاب الدعوة ، أنا ابن من كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن الشفيح المطاع ، أنا ابن مكة ومني أنا ابن من خضعت له قريش رغباً ، أنا ابن من سعد تابعه وشق خاذله ، أنا ابن من جعلت الأرض له طهوراً ومسجداً ، أنا ابن من كانت أخبار السماء له تترى أنا ابن من أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

فقال معاوية : أظن نفسك يا حسن تنازعتك إلى الخلافة ؟

فقال : ويلك يامعاوية إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعة الله ، ولعمري إنا لأعلام الهدى ، ومنار التقي ولكنك يامعاوية ممن أبار السنن ، وأحيا البدع واتخذ عباد الله خولاً ودين الله لعباً ، فكان قد أحمل ما أنت فيه فعشت يسيراً وبقيت عليك تبعاته .

وروى عنه عليه السلام في قصار هذه المعاني :

قال : ما تشاور قومٌ إلا هُودوا إلى رشدهم .

وقال : اللّومُ ألا تشكر النعمة .

وقال لبعض ولده : يا بُني لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره ،

فإذا استطببت الخبرة ورضيت العثرة فأخه على إقالة العثرة والمواساة في العسرة .

وقال : لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر اتكال

المستسلم ، فإن ابتغاء الفضل من السنة والإجمال في الطلب من العفة وليست

العفة بدافعة رزقاً ولا الحرص يجالب فضلا ، فإن الرزق مقسومٌ واستعمال

الحرص استعمال المآثم .

وقال عليه السلام : القريب من قرَّبه المودة وإن بعد نسيه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسيه . لا شيء أقرب من يد إلى جسد - وإن اليد تغل فتقطع وتحسم .

وقال عليه السلام : الخير الذي لا شرف فيه : الشكر مع النعمة والصبر على التازلة .

وقال لرجل أبلّ من علة : إن الله قد ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره .
وقال : العار أهون من النار .

وقال عند صلحة لمعاوية : إنا والله ما ثننا عن أهل الشام بالسلامة والصبر فسلبت السلامة بالعداوة - والصبر بالجدع ، وكنتم في مبدئكم إلى حنين ودينكم أمام دنياكم وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم .
وقال : ما أعرف أحداً إلا وهو أحق فيما بينه وبين ربه .

وقيل له : فيك عظمة فقال : بل في عزة - قال الله

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

ويقول عليه السلام : من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثماني : آية محكمة وأخاً مستفاداً وعلماً مستفرطاً ورحمة منتظرة وكلمة تدله على الهدى أو تردّه عن ردى وترك الذنوب حياةً أو خشية .

ورزق غلاماً فأنته قريش تهنته فقالوا : يهنيك الفارس - فقال عليه

السلام هذا القول ؟ ولعله يكون راجلاً فقال له جابر : كيف نقول يا ابن رسول الله ؟ فقال عليه السلام : إذا ولد لأحدكم غلامٌ فأتيتموه فقولوا له :

شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ، بلغ الله به أشدّه ورزقك برة .
 وقال عليه السلام : إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه وأسمع
 الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به . أسلم القلوب ما طهر من الشبهات .
 وسأله رجل أن يخيله - قال عليه السلام : إياك أن تمدحني فأنا أعلم
 بنفسى منك ، أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب ، أو تغتاب عندى أحداً
 فقال له الرجل : أتأذن لى فى الانصراف فقال : نعم إذا شئت .

وقال عليه السلام : إن من طلب العبادة تركى لها . إذا أضرت النوافل
 بالفريضة فافرضوها . اليقين معاذ للسلامة . من تذكر بعد السفر اعتد .
 ولا يغش العاقل من استنصحه بينكم وبين الموعظة حجاب العزة . قطع
 العلم عذر المتعلمين . كل معاجل يسأل النظرة وكل مؤجل يتعلل بالتسويق .
 وقال : اتقوا الله - عباد الله - وجدوا فى الطلب - وتجاه الهرب ، وبادروا
 العمل قبل مقطعات التقمات ، وهادم اللذات ، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها
 ولا تؤمن فجميعها ولا تتوقى فى مساويها - غرور حائل وسناد مائل فاتعظوا
 عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالأثر ، وازدجروا بالنعم وانتفعوا بالمواعظ ،
 فكفى بالله معتصماً ونصييراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً ، وكفى بالجنة ثواباً
 وكفى بالنار عقاباً ووبالاً .

بيعة الإمام الحسن

بينت فى الكتاب الثانى من أهل البيت (على بن أبى طالب) ما قدر

الله سبحانه وتعالى من اغتيال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه غدراً بيد أحد الخوارج وهو (عبد الرحمن بن ملجم) فمات الإمام شهيداً راضياً مرضياً .
وقد ضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم وهو خارج لصلاة الفجر ، ولم ينس الإمام على رضى الله عنه وهو في هذه المحنة القاسية أن يوصى أهله بالألا يمثلوا بقاتله ، وقال لهم : (يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم نخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلي ، انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » . وكان مما قاله أمير المؤمنين مخاطباً ابنه الإمام الحسن في شأن ابن ملجم : (يا بنى نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقتص منه بأن تقتله ولا تمثل بالرجل ، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل بيت لا تزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً) .

وفي الساعة الأخيرة أوصى الإمام بنيه الحسن والحسين بوصية ، ثم نظر إلى أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية رضى الله عنه وقال له :
(هل حفظت ما أوصيت به أخويك ، قال نعم : قال فأني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك ، العظيم حقهما عليك ، وتزيين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما) .

ثم قال لهما : وصيتكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمنا أن

أبا كما كان يحبه فأحياه .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نبأه بما وقع له .

فقد قال له يوماً : أتعلم من أشقى الأولين ؟

قال : نعم عاقر الناقة ، فقال ألا تعلم من أشقى الآخرين ؟ قال الذى

يضربك على هذه فيخضب هذه .

وفى رواية أنه لما أقبلت الليلة الثامنة عشرة من شهر رمضان اضطرب

الإمام أشد الاضطراب فجعل يمشى فى صحن الدار وهو محزون النفس

خائر القوى ، ينظر إلى الكواكب ويتأمل فيها فيزداد هم وحزنه وهو يقول

متنبأ عن وقوع الحادث وقال : (ما كذبت ولا كذبت ، إنها الليلة التى

وعدت بها) كما جاء فى الصواعق .

أما مبايعة الإمام الحسن فهناك خلاف بين الشيعة والسنة فى أمرها .

فيكاد يجمع الشيعة على إمامة هؤلاء الثلاثة على والحسن والحسين .

أما أهل السنة فلا ينكرون إمامة الحسن أيام خلافته حتى سلم الأمر

لمعاوية - ويرى الشيعة عكس ذلك فإمامته متصلة منذ مقتل الإمام على

إلى أن فارق الدنيا .

وفى هذا يذكر الشيعة أن علياً دفع إليه سلاحه وسائر تراث الأنبياء

والأوصياء وسلمه الاسم الأعظم^(١) وأن علياً جمع أولاده بعد طعنه وكانوا اثني

عشر ذكراً فقال لهم : (يا بنى إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل فى سنة

(١) المسعودى = إثبات الوصية - ونظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية .

يعقوب إذ دعا ولده وكانوا اثني عشر ذكراً فأخبرهم بصاحبهم ، ألا وإني أخبركم بصاحبكم ، ألا إن هذين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى الحسن والحسين فاسمعوا لهما وأطيعوا وذودوا عنهما فإنني ائتمنتهما على ما ائتمنى رسول الله مما ائتمنه الله عليه من خلقه .

أما أهل السنة فيذكرون عن علي أنه قال عكس ذلك إذ سئل ألا تستخلف علينا ؟ قال : - ما استخلف رسول الله فاستخلف ، ولكن إن يرد الله للناس خيراً فسيجمعهم بعدى على خيرهم ، وأنه سئل هل يستخلف الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

وفي معرض الخلاف بين الشيعة والسنة يذكر الدكتور أحمد صبحي^(١) أن علياً قد غادر الدنيا وهو ينصح شيعته ويلح عليهم بمواصلة الحرب ضد معاوية ، لأنه طلب الباطل فأصابه . وكان علي يعلم أن ابنه الحسن لم يكن يوافقه تماماً على حروبه ، ولم يكن متحمساً لها ، وربما لم يرغب عن بال علي أيضاً أن لو آل الأمر إلى الحسن لسلم الخلافة لمعاوية . وقد وصف علي ابنه بقوله : (أما الحسن فصاحب جفنة وخوان قتي من فتیان قریش ، ولو قد التقت حلقتنا البطان لم يغرن عنكم شيئاً في الحرب . ثم يقول وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا)^(٢) .

ونصل في النهاية إلى أن إمامة الحسن من وجهة النظر الشيعية واجبة

(١) نظرية الإمامة للدكتور أحمد صبحي .

(٢) ابن أبي الحديد (شرح النهج) .

لا محيص عنها من حيث إنه السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأول الأئمة من ذرية الرسول ، فهو إذاً همزة الوصل بين الرسول وبين أى إمام منتسب إلى آل البيت .

ويؤيد المرحوم الدكتور طه حسين الاختلاف الذى حدث بين المسلمين فالمؤرخون والمحدثون من أهل السنة يقولون إن علياً أبى أن يستخلف حين طلب ذلك بعد أن أصيب . يقول قدم : إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الحسن فقال : لا آمركم ولا أنهاكم . ويقول قوم آخرون إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف فأبى وقال : أترككم كما ترككم رسول الله .

والإمام الحسن بدون شك هو الخليفة الطبيعي لوالده أمير المؤمنين فهو ربحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة وهو إمام إن قام أو قعد وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا » ، وقد هذبه الله عن كل نقص ورجس ، كما دلت على ذلك آية التطهير ، بالإضافة إلى توافر جميع ما تتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة فى شخصيته كالعلم والتقوى والحزم والجدارة .

فزع المسلمون بعد موت الإمام وأجمعوا أمرهم على مبايعة الإمام الحسن فاجتمعوا فى جامع الكوفة سنة أربعين من الهجرة فى صباح ٢١ من شهر رمضان المبارك وقدمه للخلافة وبايعه قيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن العباس أما الأول فهو أعظم قواد على الذين بقوا على قيد الحياة بعد وفاة

عمار ، والاشتر وهو زعيم الأنصار فكانت بيعته بيعة الأنصار وأما الثاني فقد كانت بيعته بيعة بنى هاشم وآل الرسول صلى الله عليه وسلم وأقبل الإمام الحسن ، فاعتلى^(١) منصة الخطابة فابتدأ ، بعد حمد الله والشاء عليه بتأبين فقيه العدالة الكبرى الإمام أمير المؤمنين ، وتعداد بعض فضائله ومواهبه فقال : « لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيهه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برأيه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى في هذه الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم ، ولقد توفى فيها يوشع بن نون - وصى موسى - وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يتناع بها خادماً لأهله .
وتمثلت صورة الإمام أمامه فحنقته العبرة وأرسل ما في عينيه من دموع ، وكذلك بكى جميع من حضر في جنبات الحفل ، وساد الحزن وعم الأسى .
ثم استأنف الإمام خطابه ، فأعرب للناس عن سمو مكانته وما يتمتع به من الشرف والمجد قائلاً :

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي ، وأنا ابن النبي ، وأنا ابن البشير النذير ، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم

(١) وقد روى ذلك أبو الفرج بسنده في مقاتل الطالبين ومؤيده ما جاء في الطبري وابن الأثير وابن أبي حديد .

تطهيراً ، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن
يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت .

وبذلك تضمن خطابه دعوة الناس إلى مبايعته ، وقد كانت دعواه رائعة
بكل ما للروعة من معنى ، فلقد عرّف نفسه إلى الجماهير بأنه ابن الداعي
إلى الله وابن السراج المنير ، وأنه ممن أذهب الله عنهم الرجس والأباطيل ،
وهل هناك أحد أحق بالخلافة من شخص التقت به هذه الكمالات واجتمعت
فيه هذه الفضائل .

ولما أنسى عليه السلام خطابه الذي لم يرد التاريخ إلا جزءاً يسيراً منه انبرى
عبد الله بن العباس فحفز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلاً : « معاشر المسلمين
هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه » وتمت البيعة وهم (إنما يبايعون الله ورسوله .
ثم يستعرض في خطابه مزايا أهل البيت وحقهم الصريح في الأمر
فيقول : (نحن حزب الله الغالبون وعرة رسول الله الأقربون ، وأهل بيته
الطيبون الطاهرون وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله في أمته) إلى أن
قال : فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة ،
قال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) . ثم يقول : (وأحذركم
الإصغاء لهاتف الشيطان ، فإنه لكم عدو مبين فتكونون كأولياؤه الذين قال
لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص

على عقبه وقال إني بريء منكم إني أرى مالا ترون ، فستلقون للرماح ورداً
وللسيوف جزراً وللعمد حطماً ، وللسهام غرضاً ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن
آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) .

ويجمع جمهور المؤرخين على أن البيعة تمت في صبيحة الليلة التي وارى
فيها جثمان أبيه ، وإن كان بعض المؤرخين قد وقع في أخطاء تاريخية ، فقد
ذكر العلامة المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى أن الإمام الحسن رضى الله
عنه قد بويع له بالخلافة قبل وفاة والده ، ولما انتهت البيعة توفى والده ، وهذا
القول مخالف لإجماع المؤرخين .

وحاول معاوية أن يدافع عن نفسه فقال :

« أما بعد فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما
حدث فلم أفرح ولم أحزن ولم أشمت ولم آس ، وإن علياً أباك لكما قال
أعشى بن قيس بن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذى	إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعن بدم اللقاء	يضرب منها النساء النمورا
وما مزيد من حليج البحار	يعلو الأكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده	فيعطى الألوفا ويعطى البدورا

وتلمس في هذه الرسالة دهاء معاوية وخداعه وخوفه من الإمام الحسن ،
وذلك لمدحه وثنائه على الإمام على وإنكاره لما أظهره من الفرح بموته ، ولولا
ذلك لما سجل لخصمه هذا الثناء العاطر .

هل تسرع الإمام الحسن في قبول الخلافة :

يقول بعض النقاد إن الإمام الحسن تسرع في قبول الخلافة في مثل الظروف الذي بايعه فيه الناس بما كان يؤذن به هذا الظرف من زعازع ونتائج بعضها ألم وبعضها خسران .

يسارع إلى الجواب عن هذا التساؤل الشيخ راضي آل ياسين .
 أما أولاً - فلما كان الواجب على الناس دنيا الانقياد إلى بيعة الإمام المنصوص عليه كان الواجب على الإمام - مع قيام الحجّة بوجود الناصر - قبول البيعة من الناس .

أما قيام الحجّة - فيما نحن فيه - فقد كان من انشال الناس طواعية إلى البيعة في مختلف بلاد الإسلام ما يكفي بظاهر الحال دليلاً عليه ، ولا مجال للتخلف عن الواجب مع وجود شرطه .

وأما ثانياً - فإن مبعث هذا الانعكاس البدائي عن قضية الحسن عليه السلام هو النظر إليها من ناحيتها الدنيوية فحسب والأنسب بقضية (إمام) أن يستنطقها الباحث من ناحيتها الدينية على الأكثر ، وكثير هو الفرق بين الدنيا والدين في نظر إمام - والقضية من هذه الناحية ظفر لا خسارة ، وهي وإن تكن معرض آلام ولكنها آلام في سبيل الإسلام ، ومن أولى من الحسن بالإسلام وتحمل آلامه وإنما هو نبت بيته .

وأما ثالثاً - فلم يكن الحسن في رفعة مكانه من زعماء المسلمين وفي نسبه

الممتاز ومركزه من العلم بالذى يستطيع الفراغ وإن أرادته عن عمد ولا بالذى يتركه الناس وإن أراد هو أن يتركهم ، وكان لا بد للرجات العنيفة فى المجتمع الإسلامى أن تتدافع إليه تستدعيه للوثوب إخفاقاً للحق وإنكاراً للمنكر ، كما وقع لأخيه الحسين عليه السلام فى ظرفه .

وأيضاً فلو ترك الناس وتجاهى عن بيعتهم أو تركه الناس وأغفوه خلاقهم فلن يتركه المتغلبون على الناس ، وإنهم لينظرون إليه - دائماً - كشبح مخيف بما يدور حوله من الدعوة إلى الإصلاح أو النقمة الصارخة على الوضع التى كان يتطوع لها مختلف الطبقات من الساخطين والمعارضين والدعاة لله ، ولن يجد هؤلاء يومئذ ملجأً يفتنون إليه خيراً من ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام المحبوب . وهل كانت الوفود التى عرضت عليه استعدادها المناوأة للحكام الأمويين وإعادة الكرة^(١) لاسترجاع الحق المغصوب إلا ظاهرة هذه النقمة الصارخة التى كان يعجز بها المجتمع الإسلامى يوم ذاك ، وأنى لسלטان المتغلبين أن يستقر ما دام هذا المنار قائماً بيقين إلى الناس .

ولتذكر أنه قتل مسموماً - ولماذا يقتلونه وقد صالحهم وترك لهم الدنيا برمتها لولا أنهم خافوه على سلطانهم، ورأوا من وجوده حاجزاً يمنعهم من النفوذ إلى قلوب الناس - وهل ذلك إلا دليل انقياد الناس - فى عقيدتهم - إليه دونهم .

وهذا كله بعد الصلح وبعد ظهور جماعات من شيعته وغير شيعته

ينكرون عليه موقفه من الصلح - كما سنرى فيما بعد .

ترى فكيف كانت قوته في الناس لو أنه أبنى الخلافة من أول الأمر وبقى شغف المسلمين إلى بيعته على حدته فهل كان من المحتمل أن يظل محور الأمل ومفزع الناقمين والمعارضين ثم تنام عنه العيون الحذرة على دنياها فلا تعالجه بما ختمت به حياته المقدسة أخيراً؟ وهل كان إلا طعنة الاغتيالات الكافرة في سته الأولى بعد أبيه على أغلب الظن؟

فأى منطق هذا الذي يرى من قبول الحسن للخلافة تسرعاً؟! والخلافة في أصلها مقام أبيه وميراثه وميراث أخيه على حد تعبير الإمام على بن موسى بن جعفر عليهم السلام .

وأما الزعازع التي لّوح بها هذا التقدر . فما كانت إلا خطط المناوئين في الكوفة وليس شيء منها بالذي يضير الحسن إبان نشاط الناس معه كما هو في إبان بيعته ، وأي خليفة أو زعيم ليس له مناوئون؟ فلم لا يكون قبول البيعة هو الأرجح على مختلف الوجود؟ بل هو الواجب لضرورة الوقت وللمصلحة العامة وإخفاق الحق^(١) .

(١) صلح الحسن = (الإمام الشيخ راضي آل ياسين) .